عادل إبراهيم علي حنزولي

سبعة صبايا في قصبايا

عادل إبراهيم علي حنزولي

أجمل القصص التراثية للناشئين

(1)

سبعة صبايا في قصبايا

يحكى قديما أنّ رجلا وقورا، بهيّ الطلعة، كريم الأخلاق. توفيت زوجته مخلّفة له سبع بنات جميلات. لكنهنّ كنّ صغيرات في السنّ يحتجن رعاية وتربية فآثر أن يسخّر حياته لهنّ مربّيا وراعيا. ولأجل ذلك امتنع عن الزواج بامرأة ثانية، وكرّس كلّ وقته للعمل من أجلهنّ ورعايتهنّ وتربيتهنّ. ولأنّه كان تاجرا ماهرا وأمينا، ونشيطا، يعمل بجدّ وإخلاص طوال النّهار فقد جمع من عمله ثروة صغيرة تكفي بناته الحاجة والفاقة بل تجعلهنّ من الميسورات من بعده. فلمّا اطمأنّ الرجل لرفاه حاله، ونظر فرأى عمره يتقدّم نحو الشيخوخة، والبنات كبرن إلى أن صرن شابات جميلات مؤدّبات، ارتأى الرجل الطيّب أن يتقدّم روحانيّا فيغذّي روحه كما يتغذّى جسده. خاصة وقد نظر بعين الرضا لرسالته في الحياة ورأى أنّه أدّاها على أكمل وجه بما صنعه للبنات من تربية ورفاه ماديّ. وفي ذلك اليوم جمع الرجل بناته حوله وقال لهنّ:" أنتنّ تعلمن يا بناتي أنّي فقدت أمكنّ باكرا جدّا، وقد آليت على نفسي طيلة الخمس عشرة سنة الماضية أن أربيكنّ كما يليق ببنات الأشراف. وأظنّني أوصلتكنّ إلى برّ الأمان أخيرا. يا بناتي العزيزات إنّه ليس في الدنيا شيء أحبّ إلى المرء من فلذات أكباده وجذوات روحه، ولكنّ الله واهب البنين والبنات أحقّ بالحبّ وأحقّ بالشكر. وقد أوجب علينا تعالى ذكره وتقدّس اسمه زيارة بيته العظيم بمكّة المكرّمة، وإنّي لمّا ألفيت نفسي صاحب مال ومقدرة، وقد سكن عقلي ونفسي رضاءً بشأنكنّ، اشتاق قلبي لزيارة النبيّ الكريم، وتاقت روحي للسلام على حضرته والطّواف حول بيت الله العتيق. فما أنتنّ قائلنّ؟"

قالت ابنته الكبرى:" كيف يا أبي تتركنا وحيدات في هذا القفر الخالي؟ وأنت الأعلم أنّه ما من حبيب ولا قريب لنا غيرك ها هنا.."

وقالت إحدى بناته الوسطيات:" إنّه ليعزّ علينا فراقك يا أبانا، لكن يعزّ علينا أيضا حرمانك من أداء فريضة الحجّ والتنعّم بجوار خير خلق الله، كما حُرمت من الزواج ثانية بسبب حبّك لنا. فسافر يا أبي وكن هانئ القلب بشأننا."

قالت ابنته الصغرى:" صدقت يا أبانا الغالي، فقد ربّيتنا فأحسنت تربيّتنا، ورعيتنا فكفيتنا حاجاتنا، وإنّه لمن تمام رفعة شرف الإنسان أن ينظر بعين الامتنان والشكر إلى والديه، كيف لا؟ وهما من وهباه الحياة وسارا به في بحر الحياة اللجّيّ متلاطم الأمواج حتى أوصلاه إلى برّ النجاة رجلا متينا مهاب القدر، أو امرأة تامّة القدّ كريمة الخلق شريفة النفس.. وإنّنا لنشهد يا والدي أنّك كنت لنا خير الأب

وخير المعيل وخير المرشد والمربّي. وإنّه لمن تمام برّنا ورضانا أن نرى رجاءك وأملك في زيارة بيت الله المعظّم يتحقّق. كما قال ربّنا جلّ وعلا:" ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب." سافر يا أبي لأداء حقّ الله عليك، والهناء بقرب الحبيب نبيّنا، وكن مطمئنّا لهناء حالنا ما دمنا مطيعات لك، عاملات بوصاياك، فإنّنا في رعاية الله لا يضرّنا شيء إلا بإذنه."

قال الأب بعد سماعه لمقالات بناته:" شكرا لكنّ يا بناتي الغاليات، أسافر إذن فجر الغد إن شاء الله، وإني لتارك لكنّ كل ما يلزمكنّ من مؤونة وكلّ ما تحتجنه لمدّة عام كامل. فلا تخرجن ولا تظهرن لأحد، ولا تغلبنّكنّ الحاجة ولا الرغبة فتجلن بالأسواق والساحات. كما أوصيكنّ بألّا تفتحن بابكنّ لأحد. فإنّي وحيد غريب في هذه المدينة وليس لي من حبيب ولا قريب غير الله تعالى وغيركنّ، فلا تغترنّ بالدجالين والكذّابين ومنتحلي الصفات فيؤذيكنّ زائر يريد بكنّ شرّا." ثم مضى إلى السوق واشترى كلّ ما يلزمه من حاجيات وأغراض كوّمها ورصّفها ثم اكترى حمّالا فحملها عنه وأوصلها إلى بيته. ومن فجر الغد ودّع الرجل بناته وسط دموعهنّ التي اختلطت بالزغاريد، ثم أعاد وصيّته على مسامعهنّ:" لا تفتحن الباب لطارقٍ فلا عمّ لكنّ ها هنا ولا خالة.. وهذا كلبي يحرسكنّ ويؤنسكنّ فلا تؤذينه فتندمنّ." وانصرف يريد اللّحاق بالقافلة...

*****

مضى على سفر أبي البنات أسبوعان، وخلال تلك المدّة الوجيزة تناقلت نسوة المدينة خبر ارتحال الرّجل لأداء فريضة الحجّ وسط قافلة الحجّاج، غابطات إيّاه أحيانا ومتأسّفات أحيانا أخرى، لائمات إيّاه لتركه بناته السّبع وحيدات بلا سند ولا حامٍ ولا معيل... وكان بين تلك النسوة غول تعوّد أن يتنكّر في زيّ النساء ويلوك الأحاديث بصحبتهنّ متصنّعا صوتا رقيقا مثلهنّ كي لا يفتضح أمره. وكان من دأبه أن يفعل ذلك رغبة في مجالسهنّ التي يأنس بها ويتسلّى. فانتهى إلى مسامعه الخبر وعرف أنّها فرصة للاختلاء بإناث لا حول لهنّ ولا قوّة، فيأكل ويشبع ويلهو.. واشتدّت به الرغبة فلم يعد يطيق صبرا. فكان أن صنع حساءً لذيذا، وتنكّر وتخفّى في ملابس النّساء ثمّ حمل الحساء وانطلق إلى بيت البنات الوحيدات المنفردات. وطرق الباب فلم يجبه أحد ولم يفتح أحد. اضطربت البنات وتفاجئن من هذا الزائر الغريب الذي شقّ الليل إليهنّ، فتهامسن خائفات بصوت خفيض لا يكاد يسمع. غير أنّ الغول لم ييأس وطرق ثانية..

"لعلّه أحد أقربائنا جاء لزيارتنا." همست لأخواتها البنت الكبرى.

"ولماذا لم يذكرنا هذا القريب ولم يهتد لزيارتنا إلا في بطون الليل المظلم الساكن؟" أجابت إحدى أخواتها الوسطيات في همس.

"لا قريب لنا هنا غير الله. كذلك قال أبي." همست لهنّ أختهنّ الصغرى.

وطرق الغول المتنكّر ثالثة، وتهامس البنات ثالثة.

"لنفتح فربّما هو قريب أو عابر سبيل يحتاج مساعدتنا." قالت الكبرى.

"بل لنسأل عن هويّته قبل الفتح، فذلك أضمن وأحرى في الحذر والنجاة." قالت إحدى البنات الوسطيات.

"لا تسألنّ ولا تتأكّدن من شيء حرّمه أبي وقضى فيه بأن لا أهل لنا فتفتحن علينا أبواب المخاطر، وإذا ما علم السائل أنّما خلف الباب جواب، طمع وألحّ حتى يُستجاب طلبه.." قالت البنت الصغرى بتفكير سليم وعقل راجح، غير أنّ أخواتها لم يوقّروا نصيحتها الغالية، وانزلق الكلام من فم أختها الكبرى فسألت:" من تكون يا من تشقّ الليل لتطرق باب صبايا وحيدات خائفات؟"

"يا لشدّة حيرتي من أجلكنّ يا بنات أخي، إنّما أنا عمّتكنّ، وقد أقبلت أؤنسكنّ." قال الغول بصوت رقّقه ما استطاع حتى يشابه أصوات النّساء.

"عمّتنا؟ ما علمنا لنا من عمة ولا خالة، إلا الساعة!!" قالت إحدى البنات الوسطيات.

"فلماذا لم تجيئي إلينا إلا الساعة؟" سألت الأخت الكبرى.

"إيه يا بناتي ويا فلذات كبدي.. قصّة طويلة، سامح الله والدكنّ حرّم عليّ زيارة بيته أو القرب من بناته، نتيجة خلاف بسيط معه، ولم يكن لتصرّفه من داعٍ.." قال الغول بلهجة رقيقة كالنساء.

"هذا الخلاف ما هو؟" سأل البنات ماعدا أختهنّ الصغرى التي انشغلت بالتفكير والتمحيص.

"طلبت منه وألححت عليه ليتزوج امرأة تخلف أمكنّ، فتربيكنّ وتحسن تأديبكنّ. فرفض واغتاظ وأعلن قطيعته لي، وصاح فيّ قائلا تريدين مني أن أدخل على بناتي امرأة تعذّبهنّ وتهينهنّ.. وكان ذلك آخر عهد لي معه.." قال الغول متصنّعا حزنا وألما ولهجة نساء.

"سامح الله والدي.." قالت الأخت الكبرى.

"ألن تفتحن لي؟" قال الغول بلهجة استجداء.

"لا نفتح، فقد أوصانا أبي وشدّد علينا في القول فلا خالة لنا ولا عمّة ونحن نصدّقه." قالت البنت الصغرى تملؤها ثقة في كلام والدها.

"آه! كم أنا حزينة لكلامك يا بنيّة سامحك الله إذ تقطعين صلة الرحم.."

"لا تغادري يا عمة، الآن أفتح لك.." قالت الأخت الكبرى.

"يا أختي، ما تصنعين في وصيّة أبينا؟" قالت الصغرى معاتبة.

"وصايا الغائبين لا تنفع الحاضرين، ولو كان أبي حاضرا ما منع هذه العمة الطيبة من الولوج إلينا.." أضافت الأخت الكبرى، وفتحت الباب رغم معارضة أختها..

*****

ما إن انفتح الباب حتى طفقت العمة المزعومة تحضن وتقبّل البنات، والدموع المصطنعة تبلّل حجرها. ثم حدّثتهنّ عن شوقها إليهنّ وذكرت أشياء لا يذكرنها من صغرهنّ زعمت أنّها حدثت، وأخذت تضحك وهي تنزلق إلى داخل البيت لتتربّع وسطهنّ مانحة إيّاهنّ طبق العصيدة الحلوة اللذيذة. وطفق البنات يأكلن بنهم، تختلط مشاعرهنّ امتنانا وشوقا وفرحا باكتشاف هذه العمّة المزعومة. وأخذت العمة تحدّثهنّ وتضحك معهنّ، فلمّا مضى من الليل ثلثه الأول زعمت العمة التي ليست إلّا الغول المتنكّر، أنّها تحتاج غرفة خاصة تختلي فيها من أجل الصلاة والذكر، ففرح البنات واطمأننّ لسلامة سريرة العمة وطيبة قلبها بسبب رغبتها في الصلاة والذكر، واقتدنها لغرفة منعزلة. وكان لتلك الغرفة نافذة تفتح على وجاء الكلب..

جلس الغول جلسة الصلاة، غير أنّه بدل الدعاء والتسبيح أخذ يغنّي ويقول بصوت لا يصل صداه إلى مسامع البنات:" سبع صبايا في قصبايا يغطّ الليل وناكلهم.." فسمعه الكلب واغتاظ وردّ عليه قائلا:" هبّاشا نبّاشا، وصّاني عم الحاجّ والله لا تذوقي فم.." فلمّا سمع الغول ذلك خاف وارتعب، واقترب الكلب من النافذة ونبح نبحا طويلا مخيفا. فقفز الغول من مكانه وأسرع يستأنس بالبنات ومجلسهنّ.

"لم تغيبِي طويلا يا عمّة، كأنّك لم تصلِّ." قالت البنت الكبرى.

"آه! قطعت صلاتي وهرعت هاربة إليكنّ، محتمية بكنّ.. ذلك الكلب مزعج مخيف، ينبح يريد قضمي يحسبني رغيف.." قال الغول وطفق يبكي خائفا مرتعدا. ثمّ أضاف:" أرجوكنّ يا بناتي الغاليات، إذا ما طمعتنّ في زيارتي لكنّ فتخلّصن من هذا الكلب أولا.." وخرج الغول يرتعد خائفا منتصف الليل وسط نداء الفتيات ودعوتهنّ له ليبقى معهنّ الليلة ويبيت، إذ كنّ يعتقدن أنّه عمتهنّ الطيّبة الحنون. غير أنّ الغول المتنكّر أصرّ أن يذهب وأن لا يعود إلّا بعد أن يتخلّصن من الكلب المزعج..

نامت البنات حيارى ومتأسّفات بشأن العمّة المزعومة، وقد أشفقن عليها بعد أن اضطرّت إلى مغادرتهنّ في وقت متأخّر من الليل، إلا أنّ الفتاة الصغرى وحدها نامت مرتاحة لرحيل هذه العمة المزعومة التي لم ترتح لوجودها مذ رأتها..

*****

في الصباح قالت البنت الكبرى مخاطبة أخواتها:" هلمّا بنا نقتل الكلب كي يتسنّى للعمّة الطيبة زيارتنا."

"خوف هذه العمّة من الكلب يزيد شكوكي، لو كانت امرأة مثلنا ما خافت إلى هذا الحدّ والباب موصد دون الكلب... لا تكون هذه إلا هامة أو غولا متنكّرا." قالت البنت الصغرى.

"مع أختنا حقّ، كيف يخاف إنسان من كلب والباب موصد دونه؟" قالت إحدى البنات الوسطيات.

"أنا أختكنّ الكبرى وأعرف ما يصلح لكنّ.. يجب الخلاص من الكلب." قالت الأخت الكبرى مصرّة، وأضافت:" يحدث أن يخاف إنسان من شيء حدّ الرهاب والوهم." ثمّ تقدّمت إلى الكلب فأطعمته طعاما

مسموما، فأقبل المسكين يأكل ويبصبص بذيله امتنانا، فالكلب الوفيّ لا يتوقّع من اليد التي تطعمه غدرا. وما هو إلا وقت وجيز حتى سقط يتلوى متألّما قبل أن يموت.

"الآن تهنأ العمّة بزيارتنا كيفما شاءت!" قالت البنت الكبرى فابتسمت أخواتها عدا أختها الصغرى، ومضت تمشي بخيلاء وزهو فتبعنها بينما بقيت الأخت الصغرى وحيدة، تنظر برثاء نحو الكلب ثم طفقت تبكي، ثم جثت على ركبتيها تداعب جثّته بحنوّ وحسرة، ثم عالجت بطنه وأخرجت كبده وقلبه، وأخفتهما في لفافة من قماش نظيف. ثم اتجهت إلى غرفة الصلاة ووضعت تلك اللفافة وسط أغراض أبيها بشكل لا يكاد يظهر معه شيء..

عند المساء أقبلت العمّة المزعومة من جديد، طرقت الباب ونادت:" مرحبا يا بنات، قد عادت إليكنّ العمّة الحنون ومعها هدايا تُذيب قلوب الصبايا.."

فرح البنات وتقدّمن سريعا إلى الباب يتنافسن من تفتح الباب قبل غيرها للعمّة الحنون. ما عدا الفتاة الصغرى، تلك التي جلست وحيدة في ركن غرفة بعيدة ومهملة ومنسيّة من غرف الدّار الواسعة الكبيرة..

فتحت الأخت الكبرى الباب وقالت:" مرحبا يا عمّة، كم اشتقنا إليك يا عزيزتي، هيّا تفضّلي إلى الداخل فتمتعيننا بأخبارك وحكاياتك الجميلة.."

"خبّروني أولا، هل تخلّصتنّ من الكلب؟" قالت العمّة.

"طبعا، طبعا، فلن نبقي شيئا في بيتنا يزعج عمّتنا الحنون.." ردّد البنات بصوت واحد.

"جيّد أن تفعلن ذلك، فليس من الممكن أن يجمعني أنا وذاك الكلب سقف واحد.." قالت العمّة وهي تضحك. ثم أضافت وهي تخطو إلى الداخل:" الآن نتسامر حتى الفجر ونضحك من الحكايات والأخبار.."

اجتمع البنات حول الغول يحدّثهنّ ويلهو معهنّ، وفي ظنّهنّ أنّه عمّتهنّ الطيبة. وكان الغول يضحك ويدغدغ البنات مداعبا. ثم وزّع عليهنّ هداياه الرخيصة ولم تكن تلك الهدايا غير قطع حلوى ملوّنة من النوع الرديء. غير أنّ البنات فرحن بها وزهون وشكرن العمّة الطيّبة لأجل ما جلبت..

"مالي لا أرى أختكنّ الصغيرة؟ تلك الجميلة الهادئة اللطيفة.." سألت العمّة المزعومة.

"دعك منها يا عمّة، فلا تعدو أن تكون حمقاء بلهاء." قالت الأخت الكبرى.

"أردت أن أهبها قطعة من الحلوى اللذيذة مثلكنّ، فإنّي أحبّها مثلما أحبّكنّ." قال الغول المتنكّر في هيئة امرأة طيّبة.

"إنّها تختفي بعيدا.. لا شكّ أنّها منشغلة بقراءة الكتب، دعك منها يا عمّة فهي فتاة حمقاء لا تحسن غير قراءة الكتب التي لا تنفع، والثرثرة كنقيق ضفدع." قالت إحدى البنات الوسطيات، فضحك بقيّة البنات وشاركتهنّ العمّة ذلك على سبيل المجاملة إمعانا في إحكام خطّتها..

فلمّا تأخّر الوقت، وسكن الصوت، واختفى وقع الأقدام في الخارج، استأذنت العمّة في الذّهاب للصلاة. ومضت إلى الغرفة وأوصدت الباب خلفها ثمّ راحت تغنّي أغنيتها الجنائزيّة المشؤومة:" سبع صبايا في قصبايا يغطّ الليل وناكلهم.." فجاءها الصوت من الغرفة قريبا منها يقول:" هبّاشا نبّاشا وصّاني عمّ الحاج والله ما تذوقي فم.." وعندها فزع الغول وهرع إلى البنات يخبرهنّ بالذي جرى، وقال:" كذبتنّ عليّ. ما يزال ذاك الجرو رابضا هنا يترصّدني ليخيفني!"

"قتلناه يا عمّة، نقسم أنّنا قتلناه.." قال البنات بصوت واحد، ثمّ هرعن إلى الغرفة يفتّشنها مستعينات بمصباح العائلة الزيتيّ.. فتّش البنات باهتمام تفتيشا دقيقا مصرّات على اكتشاف السرّ حتى وجدن لفافة القماش البيضاء، فتحنها فتراءى لهنّ كبد الكلب وقلبه وقد سال الدم منهما منسكبا على أرضيّة الغرفة...

"ها هو السرّ البغيض، وليس غير تلك البلهاء من فعلت هذا!!" قال البنات وأخذن ما وجدن معهنّ إلى الخارج وألقين بالقطعة القماشيّة بما احتوت في نار الكانون المضطرمة، فاحترقت وصار كبد الكلب وقلبه رمادا..

بقي الغول وحيدا وقد اطمأنّ لهناء أمره، فأوصد الباب وعاد إلى الغناء.. وما إن انتهى من أغنيته حتى ردّ عليه ذلك الصوت ثانية:" هبّاشا نبّاشا وصاني عمّي الحاج والله لا تذوقي فم..."

غضب الغول وأخذ يبحث عن مصدر الصوت وقد تخلّص البنات من الكلب كما أمرهنّ ولم يبق منه شيء ولا أثر. وأخذ يشتمّ الغرفة ركنا ركنا حتّى جذبته رائحة الدم الذي سال من كبد الكلب المغدور،

فطفق يلحس بقعة الدم بغضب بالغ.. ثم هدأت نفسه وعاد إلى الغناء:" سبع صبايا في قصبايا يغطّ الليل وناكلهم.." وردّد أغنيته طويلا، يصمت بين الحين والحين ينتظر أن يسمع شيئا فلم يسمع، ولم يجبه صوت..

عندئذ اطمأنّ الغول وطرب ورقص قبل أن يتوجّه عائدا إلى البنات يُسمعهنّ حديثه السمج ويفيض عليهنّ من حكاياته الطريفة. فلمّا انتصف الليل طلب من الفتاة الكبرى أن تسمح له بأن يتّكأ على ركبتها، فوافقت المسكينة ظنّا منها أنّ الغول هو عمّتها الحنون. فاتّكأ وجعلت البنت تداعب شعر عمّتها الطويل. وفجأة انقلبت تلك العمّة الطيبة وحشا مخيفا، فتشوّه وجهها ونبتت لها أنياب كالسكاكين الحادّة، وبرزت من مكان أظافرها الإنسانية مخالب مخيفة حادة سوداء، واكتسح الشعر يد العمّة وانقلب جلدها أسود خشنا مريع المنظر..

"العمّة تنقلب غولا مخيفا مرعبا!!" قالت إحدى البنات الوسطيات، فانتفضت البنت الكبرى وانتفض من حولها من البنات، قبل أن تعاجلها العمّة الموهومة بعظّة حادّة، وغرزت أنيابها المخيفة في لحمها فتألّمت بشدّة وصاحت صيحاتها المفزعة وقد سال الدم غزيرا منها يلحسه ذلك الغول الرهيب المرعب، والتفت وقال يتطاير الشرر من عينيه:" إنّكنّ وجبتي يا غبيّات، لن تنجو منكنّ ولا واحدة!!" وأجهز على البنت الأولى بأظافره فماتت من حينها، ثم طفق يأكلها كما يلتهم الأسد غزالة.. فلمّا رأى البنات ذلك المنظر المريع أغمي عليهنّ من الخوف والفزع. أمّا البنت الصغرى، فإنّها لمّا سمعت صيحات أخواتها وصراخهنّ وما كان من أمر فزعهنّ، سارعت إليهنّ، فلمّا رأت ما كان من أمر الغول قالت بصوت خافت مرتعش كأنّما تُحدّث نفسها:" حذرتكنّ يا حبيباتي، فاستخففتنّ بتحذيري وكنتنّ في نصحي من الزاهدات، فالآن تذوقنّ وبال أمركنّ وما كان من قلّة امتثالكنّ لأوامر أبينا.." ثم سارعت مستغلّة انشغال الغول عنها إلى الباب ففتحته وشقّت طريقها في الليل هاربة لا يخيفها شيء بقدر ما كان الخوف من أن يدركها الغول يأكل قلبها ويلهي عقلها عن التفكير بمكروه سواه..

قادها هروبها إلى الخلاء خارج المدينة، فغمرتها الفلاة والأرض الصخريّة بوحشتها، ورفعت رأسها نحو السماء تطلب الأنس فإذا هي بغراب يطير فوقها كأنّما يحرسها أو ينتظر هلاكها ليأكل منها.

"ما صنع الغول مع شقيقاتي يا عمّي الغراب؟" سألته.

"أجهز على الأولى وهو الآن يلوك الثانية، فسارعي في الهروب، سارعي.." أجابها واختفى فواصلت الركض بأقصى ما تستطيع. وأطلّ القمر ينير طريقها في أرض صخريّة فارتاحت لنوره. ثم ظهر الغراب ثانية فسألته ثانية.

"ما صنع الغول مع شقيقاتي يا عمّي الغراب؟"

"أجهز على الثانية وأخذ يلوك الثالثة." قال الغراب واختفى، فتألّمت تلك البنت لهلاك أخواتها البنات واستشعرت حزنا وضيقا ووجعا عظيما، لمّا علمت أنّ الغول مجهز على أخواتها الستّة لا محالة..

ثم ظهر الغراب ثالثة ورابعة وخامسة، وكان كلّما ظهر سألته سؤالها ذاته فيجيبها. وفي المرة السادسة سألته، فأجاب:" اِلتهم السادسة ولحق خلفك يتمثّل بالريح كومة غبار أبيض وكومة غبار أسود.." قالها واختفى سريعا، فاضطربت البنيّة وسارعت في الجري أكثر وأكثر دون فائدة، والتفت فإذا بها ترى الكومتين الّتين ذكرهما الغراب لها خلفها، فسكن قلبها الرعب وعرفت أنّ الغول لا بدّ مدركها..

لمّا صار الغول قيد خطوات قليلة من إدراكها ومدّ يده الغليظة ذات المخالب يريد إمساكها دعت البنيّة بصوت عالٍ:" يا توّاب يا منجّي المضطرّ والأغراب!!" وعندها انشقّت الأرض لها فابتلعتها وعادت قشرتها كما كانت بينما كانت البنيّة تختفي في الأسفل...

"نجوت يا بنيّة برحمة من ربّ البريّة، لكن تأكّدي أنّي مهلكتك متى ظهرت، ولن يطول اختفاؤك واحتجابك عنّي.." قال الغول وانطلق بعيدا يسكن قلبه الغيظ ويتملّكه الغضب كنار تنفخ فيها الريح..

*****

مضى من الزمان مقدار يعلم الله طوله، والبنيّة الصغيرة تسكن جوف الأرض وتحيا برحمة من الله دون حاجة لطعام أو شراب أو هواء. وإذ بها تستشعر في لحظة من لحظات الحياة لا تعلم لها ساعة أو زمانا دقّ أوتاد تكاد تخترق لحمها إذ تمرّ محاذية لها، فصاحت تخشى أن يصيب الدقّ جسدها فتؤذى:" يا ضاربا بدقّ الأوتاد فوق رأسي حاذر أن تصيب لحمي فتحيلني إلى بؤس فوق بؤسي!!"

كان أولئك خدم السلطان يدقون أوتاد خيام سيّدهم وحاشيته، وكان من عادة السلاطين في ذاك الزمان أن يغيّروا من وقت إلى وقت مكان استقرارهم وإيوان السلطة ومستقرّ مجلس حاشيتهم. فلمّا سمع الخدم

مقالة البنيّة المخفيّة تحت الأرض فزعوا واضطربوا، ثم أسرعوا إلى سيّدهم السلطان يحدّثونه بالخبر وما كان من الأمر، ظانين أنّ الصوت لجنيّة تسكن الأرض الجديدة. فلمّا استمع السلطان مقالتهم، احتار في أمره وسكنه هوس وتعجّب. فمضى من حينه إلى مكان دقّ الأوتاد لنصب الخيام، ثم أمرهم بأن يعاودوا الدقّ ففعلوا. فصدرت عن البنية صوت أقوى تُعيد على السامعين مقالتها:" يا ضاربا بدقّ الأوتاد فوق رأسي حاذر أن تصيب لحمي فتزيدني بؤسا على بؤسي!!"

"من المتكلّم؟ أإنسيّ أم جنّيّ؟" سأل السلطان صاحبة الصوت.

"بل إنسيّ من خيرة الأجناس، ومثلي لولا دورات الزمان لا يداس.." قالت البنية المخفيّة. فلمّا سمع السلطان مقالتها، واستشعر رفعة مقامها في الدنيا وفطنتها أمر خدمه بحفر الأرض لإخراجها مستأنسين بمخاطبتها وإشاراتها كي لا تؤذيها الفؤوس. فعالج الخدم الأرض حتى أخرجوها، فلمّا رآها السلطان أكبرها لجمالها وحيائها، فأمر جواريه بالاعتناء بها ففعلوا حتى استردّت عافيتها ونضارتها وطهرها. فطلبها السلطان إلى مجلسه وسألها أن تقصّ عليه قصّتها ففعلت وانهمرت دموعها لحال أخواتها المسكينات. عندها أبدى السلطان تعاطفه معها وأسفه لحالها، ثم قال:" أمنت يا بنيّة. لا بأس عليك فلا غول يقربك ما دمت في حمايتي." ثم أمر لها بخيمة خاصة وأكرمها واعتنى بحاجاتها وجعلها من خاصّته حتى ملكت قلبه بجمالها وفطنتها وسمو أخلاقها وحلاوة حديثها فتزوّجها وسعد بقربها...

*****

هذا ما كان من أمر البنيّة الصغرى، أمّا ما كان من الغول فقد عاد لصنيعه القديم من التنكّر ومجالسة النساء واللهو... فحدث ذات مرّة أن مرّ تاجر متجوّل بمجلس نسائيّ، فطفق النساء إلى بضاعته من الملابس والعطور والحليّ والطيب. ورأى الغول ذلك فأعجبه، وبدت له فرصة للعبث واللهو والتسلية والضحك مع التاجر. فمضى من حينه يقلّب بضاعته، تارة يختار وتارة يسأل عن الأثمان ثم يلقي بها بعيدا ويقول:" بضاعتك كاسدة ورديئة." وظلّ يعبث مع التاجر حتى بلغ منه الضيق وبلبل فكره فقال التاجر:" آه! ليت كلّ النساء مثل تلك الشابة زوجة السلطان بأرض كذا، فهي تشتري مني كثيرا وتدفع لي مالا وفيرا، وتعاملني بأخلاق واحترام، ولا تكفّ أبدا عن الابتسام." فلمّا سمع الغول المتنكّر منه ذلك استشاط غضبه واحمرّت عيناه وتذكّر أنّها الأرض التي ترك فيها تلك الفتاة وقد عجز في القبض

عليها، وشكّ في أمر الشابة المذكورة على لسان التاجر فسأله وهو يهزّه آخذا بتلابيب قميصه:" كيف هي تلك الزوجة الشّابة؟ صفها لي بسرعة."

"تبدو كقمر ينير ظلمة الليل. وجهها مضيء جميل وشعرها منسدل وراءها طويل." قال التاجر متلعثما مأخوذا بالخوف والفزع لانقلاب حال المرأة العابثة ولم يدر أنّها غول متنكّر. أمّا الغول فقد عرف أنّ المرأة الشابّة بغيته، فترك التاجر ومضى سريعا كأنّه مطر تستدبره الريح، وظنّ التاجر أنّ الغول ساحرة شريرة تدفعها طاقة سحريّة مخيفة فغادر المكان مذعورا يستعيذ من الشيطان.

*****

في وقت قصير وصل الغول رياض السلطان، فتنكّر في هيئة عجوز طاعنة في السنّ مسكينة، ثمّ قدم على السلطان طالبا رحمته. فأمر له السلطان بكسوة وتمر وماء بارد، وأوصى خدمه وجواريه بأن يكرموا وفادة العجوز ويعتنوا بها، فشكر الغول صنيعه ودعا له فأعجب السلطان ذلك. ولمّا جنّ الليل طلب الغول رؤية المرأة الشابة زوجة السلطان، تلك التي زعم أنّ كلّ الناس تشكر فضلها وسيرتها... فلمّا أقبلت "قمر ذات الشعر" نظرت في وجه الغول فعرفته ولم يخفى عنها تنكّره. بينما نهض الغول يحضنها قائلا:" يا لبهاء ابنتي الطيّبة لشدّ ما سمعت عن خصالك وكرمك ورأفتك بالمساكين وأنا عجوز مسكينة وأحبّ أن أبيت الليلة إلى جانبك فتواسيني."

انسحبت المرأة من حضن العجوز مذعورة، ووشوشت في أذن السلطان خفية معلمة إيّاه بأنّ العجوز المسكينة ليست إلا الغول الذي شرّدها وأكل إخوتها. ففهم السلطان الأمر وصدّقها، غير أنّه تظاهر بعدم الفهم وابتسم للعجوز وقال:" لا بأس عليك يا خالة فلتبيتي إلى جانب زوجتي الطيبة كما طلبت."

استبشر الغول وفرح بالمقالة وهيّأ نفسه. فلمّا جنّ الليل افترش السلطان للغول مكانا جنب زوجته، وأوصاه بأن تخز ظهره متى انقلبت العجوز غولا. ونام الثلاثة في فراش واحد، وأخفى السلطان سيفه تحت مخدّته فيما ظنّ الغول أنّ السلطان بلا سلاح كما ظنّ أنّه مجهز عليه متى غلبه النوم هو وزوجته. فلمّا مضى من الليل أكثره واطمئنّ الغول لنوم الحاشية والأهالي انقلب إلى سيرته الأولى وحشا ذا أنياب ومخالب ووجه بشع وقبض ذراع "قمر ذات الحسن" زوج السلطان وهمس لها قائلا:" ألم أخبرك أنّي آكلك ولو كلفني ذلك أن أتحوّل إلى خنفساء؟"

ارتعبت قمر زوج السلطان ووخزت زوجها، وكان قد سمع ما قاله الغول ولم يكن ليهنأ بنومه وقد عرف أنّه أدخل لغرفته غولا مكّارا غدّارا. وبسرعة جذب سيفه والتفت نحو الغول في خفّة معالجا رقبته بسيفه فأطار رأسه بعيدا عن جسده فخرجت من الغول ريح نتن وصوت كالعويل شديد قبل أن يسكن ولكنّ الأهالي فزعوا وهرعوا إلى مليكهم فرأوا ما رأوا وعرفوا بالذي كان واستعجبوا من القصّة أيّما عجب. ثم حمدوا الله على نجاتهم ونجاة مليكتهم ومليكهم. وسعدت قمر وهنأت بما كان من أمرها رغم حزنها على فراق أبيها وهلاك أخواتها، وبقيت تلك الأحداث حكاية يردّدها الناس جيلا بعد جيل...

-تمّت-